تاريخ الاستلام: 2020/09/04 تاريخ القبول: 2021/03/28 تاريخ النشر: 2021/06/30

أ. حســـــان مـــراني
جامعة بـــاجي مختـــار-عنابـــة (الجزائر)
Email : meranihacene@yahoo.fr

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 15/ العدد 01 -السنة 2021 ص ص 219-240
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

ملخص:

حاولنا في هذا المقال تقديم صورة عن السوسيو-أنثروبولوجيا. بعد أن أشرنا في البداية إلى أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا كانا يعتبران حقلان متمايزان منهجا و موضوعا، أكدنا على أن التقارب الذي حدث بينهما، في أواسط الثمانينيات، نتيجة لأعمال باحثين من التخصصين، التي تقاطعت من خلالها تساؤلات كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، هو الذي أدى إلى بروز المقاربة السوسيو- أنثروبولوجية.

فبالاعتماد على مجموعة من الدراسات السابقة، ذكرنا في خطوة أولى من العمل بالظروف التي تم فيها التقارب المشار إليه بين التخصصين المذكورين، بعد ذلك، استعرضنا مجموعة من التعاريف التي اقترحت للسوسيو- أنثروبولوجيا محاولين في الوقت نفسه تحديد موضوعها و تساؤلاتها. في خطوة ثالثة، تطرقنا لقضية المنهج المستخدم في الدراسات السوسيو-أنثروبولوجية.

الكلمات المفتاحية: *الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، السوسيو- أنثروبولوجيا، الثقافي، الاجتماعي.*

Abstract

In this article, we have tried to give an idea about the socio-anthropology. After having underlined that anthropology and sociology were considered to be different, we have shown that it is through the work of crossing these two parent disciplines, carried out by many anthropologists and sociologists, especially from the 1980s, that the birth of socio-anthropology took place. After having reviewed some definitions of socio-anthropology and tried to define its object, we have shown that it is the method of "observation - interview", where observation participant and interview are closely linked, which is the preferred method in socio-anthropological work.

***Keywords**: Anthropology, sociology, socio-anthropology, the social, the cultural.*

مقدمة

لقد كان ينظر لكل من علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا على أنهما تخصصان مختلفان. و كان الاعتقاد السائد أن لكل منهما موضوعه و مفاهيمه و مناهجه الخاصة. و يبدو ذلك من خلال المواقف التي كان يتخذها العديد من العلماء، حول هذه القضية طيلة تلك الفترة و من كلا الحقلين المعرفيين. فعلى سبيل المثال، يؤكد عالم الاجتماع "آلان توران" (Alain Touraine)، بهذا الصدد، في أحد مؤلفاته، على أن دراسة المجتمعات تأخذ شكلين معرفيين: شكل علم الاجتماع من جهة و شكل الأنثروبولوجيا، باعتبارها علما "طبيعيا" للحياة الاجتماعية، من جهة أخرى (Touraine, A., 1974, p68). و لم يكن موقف عالم الأنثروبولوجيا "كلود ليفي شتروس" (Claude Levi-Strauss) أقل وضوحًا من موقف مواطنه "توران". ففي إحدى تصريحاته يقول ما يلي: "أنا لست عالم اجتماع، ولا تهمني معرفة مجتمعاتنا إلا بشكل ثانوي. فالمجتمعات التي تعنيني في المقام الأول هي تلك المجتمعات المسماة بالبدائية التي تهم بالأساس علماء الأثنولوجيا." (De l'Estoile, B, 2012, p4).

و الحقيقة أن الكثير من المنتمين إلى التخصصين لا زالوا ينظرون إلى الحقلين على أنهما علمان مستقلان عن بعضهما البعض. و نفهم هذا مثلا مما قاله " لستر ف. وارد" (Lester F. Ward) من خلال عباراته التالية: "عندما يفحص المرء هذين العلمين بعناية، و يقصد كل من علم الاجتماع و الأنثرويولوجيا، سيدرك مدى الاختلاف الموجود بينهما. فالأنثروبولوجيا، يضيف "وارد"، تهتم بدراسة الإنسان باعتباره كائنا معينا أو باعتباره نوعا ينتمي إلى مملكة الحيوان، و هي بالضرورة علما وصفيا (Ward, F.W, 2003). بتعبير مغاير، إن الأنثروبولوجيا لا تسعى، في تقديره، إلى الكشف عن قوانين الحياة الاجتماعية بل تكتفي، حسب رأيه، بالوقوف على الحقائق المادية. أما علم الاجتماع، فإنه، و على العكس من ذلك، يهتم في المقام

الأول بالتفاعلات الاجتماعية من حيث أسبابها و نتائجها. باختصار، يقول "وارد"، إن الأنثروبولوجيا هي في الأساس علم يميل للاهتمام بما هو ملموس أما علم الاجتماع فهو علم يسعى إلى التجريد (المرجع نفسه).

و لكن، و على الرغم من ذلك، فإن الوضع لم يعد بهذا الخصوص كما كان عليه. فالتعارض بين التخصصين لم يعد مطروحا بالشكل الذي كان سائدا. حيث، و على الرغم من أن البعض، كما يقول "دافيد برلينر" (David Berliner)، يرى بأن علم الاجتماع لا يزال يحافظ على نزعته الوضعية، مثل البحث عن قوانين عامة للحياة الاجتماعية، بينما الأنثروبولوجيا قد ابتعدت عن طموحاتها كعلم طبيعي، فإن هذا لا يمنع من إيجاد نزعة علمية نحو المعرفة العامة في بعض أجزاء الأنثروبولوجيا مثل "الأنثروبولوجيا المعرفية" من جهة، و لا من إيجاد مواقف تأويلية في ما يعرف بـ: "علم الاجتماع الفهمي"، من جهة أخرى (Berliner, D, 2017). كما أنه، إذا كانت هناك فكرة سائدة مفادها أن موضوع علم الاجتماع يكمن في وصف وتحليل الحقائق الكلية، بينما تهتم الأنثروبولوجيا بالمجتمعات المحلية الصغيرة، فإن ذلك، إذا نظرنا بشكل معمق للواقع، لم يعد صحيحا أيضا. إذ، و حتى إذا كان تركيز علماء الأثنروبولوجيا يتجه في الماضي نحو المجتمعات الصغيرة، بالمقارنة مع نظرائهم في علم الاجتماع، فإن الأمر بات اليوم مختلفا. لقد أصبحوا يطرحون أسئلة نظرية ذات أهداف عامة مجردة كتلك المتعلقة بالبحث حول العقل البشري بشكل عام و حول ظاهرة العولمة، الخ (المرجع نفسه).

و هكذا إذن، و في نفس الوقت الذي حدثت فيه تحولات بهذا الشأن في كل من الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع، كما يلاحظ "نيكولا دوديه" (Nicolas Dodier)، والتي تغذت من التداخلات التي تمت بين التخصصين، إلتقى الكثير من علماء

الأنثروبولوجيا و الإجتماع، وفق نماذج ما فتئت تتطور من حلقة إلى أخرى (Dodier, N, 2012, p10)، و هو ما أدى إلى ظهور ما بات يعرف بحقل "السويو-أنثروبولوجيا". و قد تجسد ذلك، كما يؤكد "سلفادور جوان" (Salvador Juan)، في شكل أعمال كثيرة تعلن صراحة أو ضمنا أنها تنتمي إلى هذا الحقل، و باتت تقترح علينا دراسة المجتمعات المعاصرة دون التخلي عن نظرة الأنثروبولوجيا و ذلك من خلال الإصرار على التركيز على البعد الرمزي (Le symbolique) كبعد أساسي لا يمكن التغاضي عنه عند دراسة المجتمعات الإنسانية (Juan, S, 2008).

في هذا السياق نقترح في هذا المقال تقديم صورة موجزة لهذا الحقل الجديد، الذي نشأ، كما سنرى أكثر، من تقاطع كل من علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا. و للتمكن من تحقيق هذا الهدف، و بالاعتماد على مجموعة من الأعمال الرائدة في هذا المجال، التي حاول مؤلفوها، بأشكال و طرق مختلفة، التعريف بالسوسيو-أنثروبولوجيا، سنتطرق في البداية إلى التذكير بالظروف التي ميزت نشأة هذا الحقل، ثم، في خطوة تالية، سنستعرض مجموعة من التعريفات التي اقترحت له محاولين في الوقت ذاته تحديد موضوعه. بعد ذلك، في خطوة ثالثة، سنسعى إلى الوقوف على المنهج أو المناهج المستعملة في الدراسات السوسيو- أنثروبولوجية.

أولا: ظروف نشأة السوسيو-أنثروبولوجيا

إذا كان التعارض قائما، كما أشرنا، بين كل من الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع، لأن عالم الأنثروبولوجيا كان يعمل، كما يؤكد " بارتيك شامبان" (Patrick Champagne)، على التركيز على حالات فردية متمثلة في مجموعات صغيرة تعيش في مناطق جغرافية محددة، بينما كان عالم الاجتماع يقوم بدراسة المجتمعات الكبيرة، مستعملا في ذلك المعطيات الإحصاءات الوطنية (Champagne, P, 1998, p26-27)، أو لأن الأول كان مدعو لدراسة المجتمعات "القديمة" أو "قليلة التمايز"، بينما

كان يدرس الثاني "المجتمعات المعقدة" أو "شديدة التمايز"، أو لأن عالم الأنثروبولوجيا كان يقوم بدراسة المجتمعات "الراكدة"، أو تلك التي "لا تعرف الكتابة" أو التي "لا تعرف تنظيم الدولة"، في حين أن عالم الاجتماع كان يهتم بالمجتمعات "التاريخية" أو "التي تعرف الكتابة" أو التي "تعرف تنظيم الدولة"، فقد أصبح الكثير يرى بأن هذا التعارض و الفصل الأكاديمي بين التخصصين ليس فقط مصطنعا و لكنه مضرا أيضا (المرجع نفسه). إذ يبدو الأمر كما لو أن الجميع بات مقتنعا اليوم، كما يلاحظ "نوربرت إلياس" (Norbert Elias)، بأن التغيرات الاجتماعية تخضع، من ناحية، للعلاقات الاجتماعية، و من ناحية أخرى، لما يرتبط بالإنسان كإنسان (Elias, N, 1991, p241). باعتبار أن الأولى تعد من اهتمامات علم الاجتماع و الثانية من مواضيع الأنثروبولوجيا.

بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من أننا نعتبر عادة أن تقارب التخصصين لم يتم إلا حديثا نسبيًا، كما سنرى ، فمن المسلم به أيضًا أن بدايات هذا التقارب تعود في الواقع إلى ثلاثينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان للتطور الكبير للأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية، على حد تعبير" دونيس كوش" (Denys) Cuche، تأثير كبير على جزء من علم الاجتماع. و هو التقارب الذي أدى إلى قيام الأول باستعارة أساليب و مناهج الأنثروبولوجيا و استعارة الثانية من علم الاجتماع لميادين دراسته (Cuche, D, 1998, p46). و قد كانت الفرضية الأساسية التي استندت إليها تلك الدراسات هي أن فهم ثقافة المجتمع المحلي يؤدي إلى فهم الثقافة العامة للمجتمع الكبير. إن الدراسات المشار إليها هي مجموعة بحوث ما يعرف بـ: "مدرسة شيكاغو" حيث تم من خلالها اتخاذ خطوة نحو السوسيو–أنثروبولوجيا، لأن الدراسات كانت تتم بالاعتماد على منهج الأنثروبولوجيا المتمثل في الملاحظة

بالمشاركة للوقوف على مختلف المشكلات الاجتماعية التي كانت تعرفها آنذاك المنطقة الصناعية الكبرى لمدينة شيكاغو الأمريكية (المرجع نفسه).

هذا و تجدر الإشارة أيضا إلى أن العديد من الباحثين الآخرين يرجعون أصل الموقف النظري الذي يجمع بين رؤية كل من علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا، وبالتالي للسوسيو-أنثروبولوجيا نفسها، بالإضافة إلى أعمال مدرسة شيكاغو، إلى تصور عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر الذي كان يرى، كما يشير "باتريك شامبان" مرة أخرى، أن العلوم الإنسانية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الأفراد هم كائنات يتصرفون وفقًا للقيم، و المعتقدات و التمثلات، و بالتالي توجب على عالم الاجتماع، إذا أراد فهم أفعال الأفراد في المجتمع، الكشف عن المعنى الذي يعطونه لأفعالهم. و هو معنى متغير حسب المعتقدات و الثقافات و القيم (Champagne, P, 1998, 18 .(p

و مهما كان الأمر، لقد أصبح من المسلم به اليوم تقريبا، و على نطاق واسع، أن التقارب بين هذين التخصصين الكبيرين المتمثلين في علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا، قد أدى من خلال تقاطع الكثير من تساؤلاتهما، إلى ظهور تخصص أو حقل جديد تمثل في السوسيو-أنثروبولوجيا كنتيجة للتكامل الذي أحدثه ذلك التقارب و التقاطع بين التخصصين في سياق البحث عن الاستفادة من المقاربات المتعددة التخصصات (Hamel, J, 2016)، حيث يظهر تعبير "السوسيو-أنثروبولوجيا" ذاته، على حد تعبير "جان-بيار أوليفييه دو ساردان" (Jean-Pierre Olivier de Sardan)، اهتمام الأنثروبولوجيا في مد جسر بينها و بين علم الاجتماع الكيفي الذي انتهج، و منذ فترة طويلة، أساليب البحث الأنثروبولوجي، خاصة في تلك الدراسات التي اهتمت بالمواضيع التي فرضتها مشكلات الحداثة في الولايات المتحدة الأمريكية (De Sardan, J-P O, 2010) حتى إن كنا لا نستطيع التمييز بعد لدى السوسيو-أنثروبولوجيين،

كما يلاحظ "سلفادور جوان"، بين أولئك الذين يسعون إلى دمج التخصصين وأولئك الذين يعملون من خلال انتماء مزدوج، أي لعلم الاجتماع و الأنثروبولوجيا، في الوقت نفسه (Juan, S, 2008).

و على أية حال، يرى الكثيرون بأن حقل البحث السوسيو–أنثروبولوجي قد برز بشكل واضح خلال الثمانينيات من القرن الماضي، بعد أن استمد مؤسسوه من الأنثروبولوجيين موضوعاتهم بكل جرأة من التخصصات القريبة، مثل علم الاجتماع و العلوم السياسية. و قد أدى ذلك، كما يؤكد "دو ساردان"، إلى نتائج جيدة من جراء استثمار ما أسماه الجزء المنتج للأنثروبولوجيا و يقصد بذلك الجانب المنهجي لها المتمثل في المسح الميداني مع التخلي عن جزئها غير المنتج، على حد تعبيره، و المتمثل في الاهتمام بالعرق و من وراء ذلك عن نزعتها الثقافوية (De Sardan, J-PO, 2010). و مع ذلك، و إذا أيدنا "نيكولا دوديه" (Nicolas Dodier)، فإن التقارب بين كل من علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا و تقاطع بعض من اهتمامهما قد تم في الواقع على مرحلتين. الأولى، تلك التي أشرنا إليها و هي فترة الثمانينيات من القرن العشرين. و هي الفترة التي انصب فيها الاهتمام على أنساق التمثلات، حيث شكلت فيها قضايا الصحة و المرض مواضيع الأبحاث، انطلاقا من رؤية تتقاطع فيها كل من الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع محاولة الوقوف على تمثلات الأفراد للأمراض و الاضطرابات الجسدية...الخ. وقد تم التعبير آنذاك عن تلك الاهتمامات من خلال مفاهيم أساسية مثل "الأنساق الرمزية" و "التمثلات الاجتماعية"...(Dodier, N, 2012, p11). أما المرحلة الثانية، التي ترسخ خلالها التقارب بين التخصصين، حسب "دوديه"، فهي فترة التسعينيات من القرن العشرين. و ذلك عندما تم الدمج بين عدة طرق عمل، و منها على وجه الخصوص: إعادة التفكير في طريقة تمفصل مستويات

التحليل، مع اهتمام خاص بالمستوى "الجزئي" (micro)، و كذا الاهتمام بمفاهيم الحدث و الفعل في مقابل التركيز على البنى (المرجع نفسه: ص 11 -12).

أما بالنسبة لـ: "بيار بوفييه" (Pierre Bouvier)، فإن السوسيو-أنثروبولوجيا برزت كنتيجة للتفكير في كل من الأزمة المجتمعية التي عرفها المجتمع الغربي من جهة، و الإمكانيات التي تمنحها المقاربة المتعددة التخصصات، من جهة ثانية. و هكذا، فإن ظهور السوسيو-أنثروبولوجيا و تبرير قيامها، يعودان في المقام الأول إلى التحولات التي عرفتها المجتمعات المعاصرة، حيث شهدنا، حسب قوله، و منذ عدة عقود، تشكيكا في فعالية العوامل الأساسية المؤدية للحداثة، و بصورة خاصة في القاعدة المشكلة لها من تقدم و تنمية و ديناميات اجتماعية. و من هنا، يضيف "بوفييه"، فإن السوسيو-أنثروبولوجيا نشأت في اللحظة التي ابتعد فيها التحليل السوسيولوجي عن التسليم بخرافات التقدم و قدرته على تحقيق الإندماج و تمكن من إيجاد، من خلال دراسة الجماعات المهمشة التي تعيش خارج دائرة التطور التقني المعاصر، فرصة لإعادة النظر في طرق التحليل المعتمدة. و هكذا، فإن إنجازات الأنثروبولوجيا، و بشكل خاص، طريقتها في معاينة الوقائع الاجتماعية، باتت تشكل بالنسبة لعلماء الاجتماع مصدرا لاستعادة الحيوية، خاصة في ظل غياب واضح لفعالية النظريات التفسيرية العامة المطبقة على معايير و توازنات و ديناميات الحداثة (Bouvier, P, 2003).

و مهما كان الأمر، فإن الوضع اليوم يبدو كما وصفه " دافيد برلينر". و هو أن الأغلبية من علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا قد طووا صفحة التمييز الذي كان سائدا بين الـ:"نحن" (Nous)، الذي يفترض أنه يشكل مواضيع علم الاجتماع، و الـ:" الهم" (Eux)، الذي يفترض أنه يجسد تساؤلات الأنثروبولوجيا، و أصبح العلماء يعتبرون هذه المصطلحات المقسمة للتخصصين من بقايا الماضي الاستعماري التي عفا عليها الزمن (Berliner, D, 2017).

تعريف السوسيو–أنثروبولوجيا

بعد أن ذكّرنا بإيجاز الظروف التي وقع فيها التقارب بين كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، و تقاطع اهتماماتهما، و هو التقارب الذي أدى إلى بروز السوسيو–أنثروبولوجيا، علينا أن نعرف هذا الحقل و في نفس الوقت أن نحاول تحديد موضوعه و لو كان ذلك بشكل عام و مختصر.

كيف تعرف السوسيو–أنثروبولوجيا؟ في الواقع ، لقد تم اقتراح عدة إجابات على هذا السؤال. فعلى سبيل المثال، يعرّفها "جاك هامل" على أنها تلك المقاربة الجديدة التي نشأت و طبقت في بداية الأمر في الدراسات التي اهتمت بالعمل (و بالتالي ليس مواضيع الصحة والمرض، كما رأى "نيكولا دوديه") و التي باتت تستعمل، يضيف "هامل"، في جميع الدراسات الاجتماعية و بكل تعقيداتها، من خلال محاولة مد الجسور بين علمي الاجتماع و الأنثروبولوجيا، حيث يكون الاهتمام بالنسبة للأول هو فهم تعقيد الظواهر الاجتماعية، من خلال التأكيد على الوسائط التي تجعل الوقائع تأخذ على المستوى العام أشكالا كلية (totalité)، بينما تهتم الثانية بتفسير الظواهر على المستوى المحلي مما يسمح بإجراء دراسات مباشرة و دقيقة تكون نتائجها الوقوف الفعلي على التأثيرات المتبادلة التي تشكل تلك الوقائع (Hamel, J, 2003).

أما بالنسبة لـ:"بيار بوفييه"، فإن السوسيو–أنثروبولوجيا تتجلى من خلال جعل الوضع الحالي (la situation présente)، المتسم بانهيار البنى و فقدان المعايير، موضوعا للدراسة، من خلال طرح التساؤلات عبر تقاطع بين مجموعة من العناصر ذات الطبيعة الاجتماعية و أخرى ذات البعد الأنثروبولوجي. و حسب رأي "بوفييه" دائما، فإن السوسيو–أنثروبولوجيا تتميز أيضا، من خلال التقليل من قيمة الضمانات و التخلي عن النظريات العامة الذي تستدعيه، بإمكانية فسح المجال

للاهتمام بأوجه الحياة المحلية و اليومية و بما يسميه بـ: "الفرديات المتعددة" (les singuliers pluriels) و"التعابير المتأخرة" (les expressions décalées) (Bouvier, P, 2003).

و يضيف "بوفييه" بهذا الصدد أن الاهتمام بهذه العناصر و الاحتكاك الذي يقع بينها يؤدي إلى بروز نماذج جديدة للتفسير. و بالتالي، فإن لقاء تلك العناصر و الاحتكاك الذي يقع بين التخصصين يؤدي، إلى بروز العناصر المشكلة للسوسيو- أنثروبولوجيا. و هي العناصر المتكونة مما يسميه "البناءات الممارساتية- الكشفية" (les construits pratico-heuristiques)، و"المجموعات السكانية المتماسكة منطقيا" (les ensembles populationnels cohérents)، و"الكشف عما هو موجود تحت سطح" الحياة الاجتماعية (l'endoréisme) وأخيرا " التحليل الذاتي" (l'autoscopie). و هي، بالنسبة إليه، مفاهيم تمنح، من خلال سماحها بقراءة متجددة للواقع المعاصر، إمكانية الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من الحياة اليومية، في تجلياتها الأساسية، بعد إزاحة الحواجز النظرية التي كانت تحدد معانيها مسبقًا. و هذا بالنظر إلى أن "البناء الممارساتي-الكشفي" كتبادل هادف بين الأفراد يمكن أن ينفتح على "مجموعة سكانية". و من هنا يستنتج "بوفييه" أن "الآخر و الأنا" (l'autre et le même) هو الذي يشكل، في السياق المعاصر المتميز بانهيار البنى، مجال المشروع السوسيو-أنثروبولوجي (المرجع نفسه).

و في موقع آخر، يذكر "بيار بوفييه" أن السوسيو-أنثروبولوجيا ظهرت في الواقع استجابة لـ: "تعددية" أبعاد الحياة الاجتماعية. و هو الأمر الذي ينعكس في شكل تعدد للمواضيع المؤدية بدورها إلى تعدد مجالات الدراسة في العلوم الاجتماعية والإنسانية و أيضا إلى تعدد الأشكال التي تتجلى من خلالها تلك الأبعاد والمواضيع. إن الموقف السوسيو-أنثروبولوجي، يقول "بوفييه"، هو ذلك الذي تقترح من خلاله

قراءة للحياة الاجتماعية تمنح فيها أهمية خاصة لأشكال التبادل الاجتماعي التي تتم خارج نطاق المؤسسات القائمة حيث تتقاطع الممارسات الفردية والجماعية، و لما يسميه ترددات الممارسات و لطابعها الهامشي أحيانا، و للتمثلات و التصورات التي تستند إليها تلك الممارسات و القناعات. بتعبير آخر، إن المقاربة السوسيو–أنثروبولوجية هي تلك الرؤية التي تقترح من خلالها أشكال أخرى لقراءة الواقع تكون منفتحة على كل فهم جديد، مركزة على الفردي والجماعي في تحولاتهما وتقاطعاتهما المؤدية لبروز ما يسميه "بوفييه" "بنى الممارسة الكشفية" وحتى "المجموعات السكانية المتماسكة منطقيا" و لو كان وجودها مؤقتا.

أما بالنسبة لـ "جان–بيار أوليفييه دو ساردان"، فإن السوسيو–أنثروبولوجيا هي" الدراسة الامبيريقية (التجريبية) متعددة الأبعاد للمجموعات الاجتماعية المعاصرة وتفاعلاتها، في إطار منظور زمني (diachronique)، و التي يجمع فيها تحليل الممارسات والتصورات." من هنا يرى "دو ساردان" أن السوسيو–أنثروبولوجيا، تتميز عن علم الاجتماع الكمي القائم على التحقيقات المكثفة من خلال الاستبيانات و كذلك عن ما يسميه بالأنثروبولوجيا "التراثوية" (patrimonialiste) التي يعتمد فيها الباحث على عملية جمع البيانات من المخبرين أكثر من الفاعلين المعنيين بالدراسة. ومن ثم، فالعمل السوسيو–أنثروبولوجي بالنسبة له يتجسد في أنشطة التحليل المكثف التي تتم في مواقع الحياة ذاتها لديناميكيات إعادة إنتاج و تحولات الفئات الاجتماعية بمختلف أنواعها، و التي تأخذ بعين الاعتبار سلوكيات الفاعلين، فضلاً عن المعاني التي يمنحونها لممارساتهم (De Sardan, J-P O, 1995, p10)

و يعتبر"دو ساردان" أن السوسيو–أنثروبولوجيا هي عبارة عن أنثروبولوجيا "اجتماعية" و "تاريخية"، و هي تحاول الجمع بين وجهة نظر الفاعل و تحليل

الإكراهات السائدة و الإمكانيات الجماعية المتاحة (De Sardan, J-P o, 2001, p64). ومع ذلك، يؤكد "دو ساردان" على نقطة مهمة، و هو محق في ذلك من وجهة نظرنا. و يتعلق الأمر بحقيقة أنه إذا أعطت السوسيو-أنثروبولوجيا مكانة خاصة للثقافة في دراستها للمجتمع، الشيء الذي تدين به لأصلها الأنثروبولوجي، فإن ذلك لا يجب أن يؤدي إلى رؤية "ثقافوية" مضرة بفهم الممارسات الإنسانية في المجتمع. و تعود النزعة "الثقافوية" في حقيقة الأمر، كما يؤكد "دو ساردان"، إلى ما يسميه "الإشارات الكسولة" للعوامل الثقافية، والتي غالبًا ما ينسى أصحابها وجود ثقافات فرعية، و تنوعات ثقافية داخل المجتمع، و تأثير التمايزات الاجتماعية، مثل السن، و الجنس، و الطبقة الاجتماعية...، على المعايير و الممارسات. بعبارة أخرى، إن النزعات "الثقافوية" تنتج من مواقف أولئك الذين ينسون أن الثقافة هي بناء، يخضع لعمليات توفيقية مستمرة و أنها مجال لصراعات رمزية (De Sardan, J-P O,1995, p11). و لا يعني هذا، بطبيعة الحال، كما يلاحظ "دو ساردان"، أن مفهوم الثقافة ليس مهما في عملية التحليل. بل، إن الأمر على العكس من ذلك تماما. لأنه، و في أي عملية تحليل أو دراسة لمجموعة من التمثلات أو الممارسات المشتركة بين أي مجموعة من الفاعلين الاجتماعيين، فإن مفهوم الثقافة لا يمكن الاستغناء عنه. إن عيب "الثقافوية" يكمن في أن هذا الاستخدام العملي والضروري لمفهوم الثقافة، سرعان من ينزلق إلى استخدام أيديولوجي، يضفي عليه من الغموض و التبسيط و المبالغة التي تؤدي بالضرورة إلى سوء فهم المواضيع الخاضعة للدراسة. حيث يتم التعامل مع التمثلات و الممارسات و كأنها مطلقة و ليست مرتبطة بسياقات معينة (De Sardan, J-P O 2010).

و يبدو أن "دونيس كوش" (Denys Cuche) من جانبه، لا يقول إلا الشيء نفسه عندما يذكر بهذا الصدد أن علماء الاجتماع، عند اهتمامهم بالثقافة، لا

ينسون التمييز داخل المجتمعات بين الثقافات حسب الطبقات الاجتماعية و المجموعات الإثنية. و يضيف "كوش" أن العديد من المؤلفين يتحدثون في هذا الإطار عن الكثير من الثقافات الفرعية كثقافة الجانحين و ثقافة الفقراء و الشباب...إلخ. لأنه، كما يلاحظ "كوش"، في المجتمعات المعقدة من الشائع جدا أن تكون للمجموعات المختلفة طرق خاصة في التفكير والممارسات حتى و إن كانت تشترك جميعها في الثقافة العامة للمجتمع الذي تنتمي إليه، والتي، و إن كانت تفرض على الأفراد نماذج ثقافية معينة، فإن ذلك يتم بشكل أكثر مرونة مما عليه الأمر في المجتمعات "البدائية" و ذلك بسبب قلة تجانس المجتمعات المعاصرة (Cuche, D, 1998, p47). و عليه كان من الضروري، كما يستنتج "كوش"، دراسة العلاقات الثقافية ضمن الأطر المختلفة للعلاقات الاجتماعية، و هي علاقات بإمكانها أن تعزز إما علاقات التكامل أو على العكس من ذلك علاقات التنافس و الصراع مع عدم نسيان، من جهة، أن ما يحدث أولا من الناحية التاريخية هو الاتصال ثم تأتي ثانيا ظاهرة التمايز التي تنتج عنها الاختلافات الثقافية و أن الثقافات، من جهة أخرى، تنشأ من خلال العلاقات الاجتماعية التي هي دائما علاقات غير متكافئة. وهكذا، يؤكد "كوش"، فإن الاعتقاد في غياب تسلسل هرمي بين الثقافات ناتج في الواقع عن افتراض خاطئ مفاده أن الثقافات تنشأ بشكل مستقل عن بعضها البعض، و هو ما لا يتوافق بطبيعة الحال مع الواقع (المرجع نفسه: ص68).

و في هذا الإطار يذكرنا "دونيس كوش" بمواقف باحثين كبيرين من هذه المسألة، أي العلاقة بين الثقافي والاجتماعي، إلى درجة يصبح معها التساؤل عما إذا لم تكن السوسيو–أنثروبولوجيا، باعتبارها، في جانب أساسي منها، محاولة للجمع بين البعدين الثقافي و الاجتماعي، كما أشرنا سابقا، وليدة أعمالهما، تساؤلا مشروعا. و يتعلق

الأمر بكل من "روجيه باستيد" (Roger Bastide) و "جورج بالانديه" (Georges Ballandier). فبالنسبة للأول، يلاحظ "كوش"، كانت فكرته الأساسية التي ينطلق منها لدراسة المجتمعات، بخلفيته المزدوجة السوسيولوجية و الأثروبولجية، هي أنه لا يمكن دراسة الثقافي بشكل مستقل عن الاجتماعي. إذ، بالنسبة إلى "باستيد"، تتمثل مشكلة الاتجاه الثقافوي الأمريكي في أن ممثليه يقومون بدراسة عملية التثقيف (l'acculturation) دون الجمع بين ما هو ثقافي و ما هو اجتماعي. بعبارة أخرى، إن عملية التثقيف التي تعرفها المجتمعات عبارة عن ظاهرة اجتماعية كلية على حد تعبير "مارسيل موس" (Marcel Mauss). فإذا كانت الوقائع المتعلقة بالثقافة ترتبط بكل مستويات الواقع الاجتماعي و الثقافي، فإنه من غير الممكن إذن تقييد التغير الثقافي مسبقًا لا أفقياً في نفس المستوى، و لا عمودياً بين المستويات المختلفة.

أما بالنسبة للثاني، أي "جورج بالانديه"، يلخص "دونيس كوش" موقفه في أنه إذا اعتبرنا أن الثقافة ليست معطى مسبق أو عبارة عن ميراث يمكن نقله كما هو من جيل إلى جيل، فذلك لأن الثقافة إنتاج تاريخي. و يعني ذلك أنها بناء يتم في ظروف تاريخية معينة. و بشكل أدق في تاريخ العلاقات القائمة بين المجموعات و الطبقات الاجتماعية. من هنا كان من الضروري، لدى "بالانديه"، من أجل فهم النسق الثقافي السائد في المجتمع، أن نقوم بتحليل الوضع الذي أنتجه بالشكل الذي هو عليه (المرجع نفسه، ص57-68).

المنهج في البحوث السوسيو–أنثروبولوجية

من المعلوم أن منهج البحث الأساسي في الأنثروبولوجيا هو منهج "الملاحظة بالمشاركة". و بما أنهم مجبرين على تسجيل تصرفات الفاعلين بشكل دقيق، و التي تكون في الغالب غريبة عنهم و يصعب عليهم إدراك معانيها من الوهلة الأولى، فقد كان من الضروري على الباحثين في الأنثروبولوجيا، كما يلاحظ "باتريك شامبان"، استخدام تقنية الملاحظة المباشرة بشكل أساسي و القيام بالدراسات المونوغرافية (Champagne 1998: 45). كما أنهم بنوا " شهاداتهم، بالإضافة إلى هذا، على إقامات طويلة في مناطق نائية." (كريس هان و كيث هارت، 2014، 18) و لذلك تعتبر الملاحظة بحق المنهج الرئيسي للبحث في الأنثروبولوجيا بينما تعتبر تقنيات و مناهج أخرى كالإحصاء مثلا أكثر ملاءمة لدراسة المجتمعات الكبيرة، أي المجتمعات المعاصرة، و من ثم كانت ترتبط بعلم الاجتماع. فالملاحظة في ميدان الأنثروبولوجيا تعتبر من الخطوات الهامة لدراسة الظواهر، بل يمكن اعتبارها من التقنيات الأساسية لجمع البيانات التي بدونها لن تكون لهذه الدراسات فائدة كبيرة. (مرقوم منصور، 2013، 108). إلا أن هذا التمييز، كما يلاحظ "شامبان"، لم يعد في الواقع معمولا به، إذ لم يعد هناك ما يمنع من استخدام أساليب الملاحظة الأنثروبولوجية في الدراسات السوسيولوجية التي تتخذ من المجتمعات المعاصرة موضوعا لها (المرجع نفسه). ويبدو أن ذلك قد تحقق بشكل واضح في الدراسات السوسيو–أنثروبولوجية، حيث شكلت الأنثروبولوجيا و منهجها، في المجالات التي تمتلك فيها تقاليد ثرية، على حد تعبير "نيكولا دوديه"، مصدر إلهام للتفكير في مناهج علم الاجتماع (Dodier, N, 2012, p16).

من هنا، و بالتزامن مع تقنية المقابلة، تم استخدام الملاحظة في الدراسات السوسيو-أنثروبولوجية. بل إن البعض يرى أن هذه الأخيرة لا تعرف بموضوعها بقدر ما تعرف بمنهجها. فإذا كان موضوع هذا التخصص الجديد، كما يقول "سلفادور جوان"، يشكل خليطا، فإن إمكانية تحديد خصوصيته قد تستند إلى منهجه بدلا من موضوعه. المهم يبدو أن منهج البحث في الدراسات السوسيو-أنثروبولوجيا قد تجسد بالفعل من خلال دمج كل من الملاحظة و المقابلة. فبالإضافة إلى أن الاستناد إلى الأعمال الميدانية قد شكل نقطة مشتركة بين علماء السوسيو-أنثروبولوجيا حيث غالبًا ما تقودهم أنشطتهم البحثية إلى استثمار، من خلال فترة ملاحظة طويلة الأمد نسبيا، في مجموعة اجتماعية أو مجموعة مهنية أو مجموعة من الأفراد الذين تجمعهم خاصية معينة، يكون هدفهم من خلالها تحديد تمثلاتهم لعالمهم و المعنى الذي يعطونه هم أنفسهم لتصوراتهم و ممارساتهم، لقد تجسد منهج البحث في الدراسات السوسيو-أنثروبولوجية في الجمع بين الملاحظة المباشرة و الدقيقة، التي تعتبر تقنية الأنثروبولوجيا بامتياز، بالمقابلة مع المبحوثين، باعتبارها التقنية المفضلة في الدراسات السوسيولوجية.

و يشير "بيار بوفييه"، في هذا الإطار أن المنهج السوسيو-أنثروبولوجي من شأنه أن يندرج تقليديًا في إطار المناهج النوعية من خلال استخدام كل من المقابلة و الملاحظة و المقارنة و أيضًا، كما أشرنا سابقا عند تطرقنا لتعريف هذا الحقل، التقنيات التي يسميها "التحليل الذاتي" (l'autoscopie) و الملاحظة، من خلال وضع مسافة بين الباحث و ما يريد ملاحظته (l'observation distanciée)، و "الكشف عما يختبئ تحت السطح"، حيث يجب أن تكون الطريقة استقرائية، مفتوحة على ما هو غير متوقع. كما أن على الباحث في ميدان السوسيو-أنثروبولوجيا، يرى "بوفييه"، أن يركز اهتمامه بشكل خاص على الحركات الديناميكية للحياة

الاجتماعية و التي تأخذ عادة أشكال ظواهر ناشئة (phénomènes émergents)، مستترة و متواجدة خارج المؤسسات و التي يمكن أن تكون أيضًا جزءًا من الذاكرة الجماعية بشكل مخفي أو على وشك البروز. ببتعبير مغاير، سيكون الاهتمام منصبا أيضا، وفق هذا التصور، على الرواسب الجماعية و ما يتواجد على هامش الحياة المؤسسة و الرسمية (Juan, J-P O, 2008).

و إذا أردنا الاختصار، يمكننا القول إن المنهج المفضل في الدراسات السوسيو–أنثروبولوجية هو ذلك الذي جمع بين تقنيتي الملاحظة بالمشاركة و المقابلة. و عادةً ما تأخذ هذه الطريقة، على حد تعبير "سلفادور جوان"، شكل مقابلات متكررة و معمقة بالتزامن مع الملاحظة و التي تضعف معها درجة التمييز المألوف بين الذات الباحثة و الموضوع المبحوث. إن صعوبة القيام بالملاحظة بالمشاركة طويلة الأمد في مجتمعات متجانسة متواجدة في نطاق جغرافي محدد في المجتمعات المعاصرة، يقول "سلفادور جوان"، أدت إلى الاعتماد على "المقابلات المعمقة" و بشكل متكرر، التي يمكن تسميتها حسب تعبيره بـ: "الملاحظة–المقابلة" (l'observation–entretien) في معظم الدراسات السوسيو–أنثروبولوجية، حيث لا يكون عدد أفراد العينة و الحالات المدروسة مهما لأن الهدف الذي يسعى إليه الباحث في هذا الحقل هو التوصل إلى الكشف عما استوعبه المبحوث من خلال انتمائه للمجتمع الذي ينتمي إليه و الذي هو محل البحث. بعبارة أخرى، و هو ما له تداعيات إبستمولوجية مهمة هنا، هو أن التمييز بين ما هو نوعي و ما هو كيفي يفقد أهميته في هذا الموقف النظري، لأن الفرضية الضمنية الأساسية هنا هي الميزة "التصويرية" إن صحت الترجمة، أو "التمثيلية" (hologrammique) للأفراد حيث أن الكل متواجد في الجزء و أنه، من خلال تعميق البحث على هذا الجزء، نصل إلى تحديد خصائص الكل.

من هنا، يقول "سلفودور جوان"، مع "الملاحظة-المقابلة" يختفي التعارض بين الكلي (المجتمع) و الجزئي (الفرد) لأن الافتراض الأساسي للسوسيو-أنثروبولوجيا هو أنه " إذا كان الكل متواجد بالضرورة في الجزء، فإن الجزء متواجد بالضرورة أيضًا في الكل". (المرجع نفسه).

مما سبق نستنتج إذن أن منهج "المقابلة بالملاحظة" هو المنهج المهيمن على البحوث السوسيو-أنثروبولوجية. و لكن هل هو المنهج الوحيد المستخدم دون غيره من طرف الباحثين في هذا الحقل المعرفي؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك. إذ، و كما يقول فوزي عادل، إذا كانت المقابلة هي بالتأكيد أنسب طريقة لممارسة البحث السوسيو-أنثروبولوجي، فإن ذلك لا يعني استبعاد الاستعانة بمناهج و تقنيات أخرى، بما في ذلك الاستبيان أو الاستمارة. و يبدو أن هذا هو أيضا موقف "جان بيير أوليفييه دو ساردان"، الذي يلاحظ أنه بالإمكان الجمع بين العديد من تقنيات التنقيب في البحوث السوسيو-أنثروبولوجية. و هنا يذكر أربعة أنماط من التقنيات يمكن الاستعانة بها و هي: الملاحظة بالمشاركة، المقابلات، إجراءات الجرد أو التعداد و أخيرا المصادر المكتوبة. حيث لا تكون الملاحظة بالمشاركة، في تصوره، سوى مشاركة الباحث من خلال تفاعل طويل الأمد مع الفاعلين الاجتماعيين في وضعية يكون فيها بمثابة الطالب المتعلم (De Sardan, J-P O, 2001, p66-67)، و حيث يتوجب عليه أيضا إجراء المقابلات في أقرب ما يمكن لظروف الحياة العادية الطبيعية لحياة المجتمع. لأن الباحث الجيد، في تصوره، هو ذلك الذي يبقى قريبًا قدر الإمكان من الحوار العادي الذي يقبل من خلاله انحرافاته و تناقضاته وترددات وتوقفاته...الخ. (المرجع نفسه، ص70-71). أما إجراءات الجرد أو التعداد، فهي مجموعة البطاقات والتعدادات المصغرة، و الرسوم البيانية، وأشجار الأنساب...إلخ. التي يتمكن الباحث من انجازها أثناء بحثه. أما المصادر المكتوبة، فهي مجموعة المصادر التي يمكن اكتشافها

أو إنتاجها، من كتابات مدرسية، أو رسائل شخصية...الخ. و لعل من أهم ما يشير إليه "دو ساردان" بهذا الشأن هو أن طريقة دراسة الحالة كفيلة بالسماح للجمع بين مجموعة من التقنيات و استعمالها المفيد في البحوث السوسيو–أنثروبولوجية مهما كان الموضوع المراد دراسته. (المرجع نفسه، ص 73).

الخلاصة

حاولنا من خلال هذا المقال تقديم صورة مختصرة عن المقاربة السوسيو–أنثروبولوجية. و في هذا الإطار، أشرنا إلى أن المتفق عليه هو أن بدايات هذا الحقل تعود إلى فترة الثمانينيات من القرن العشرين عندما قرر علماء الأنثروبولوجيا الاهتمام بالمجتمعات المعاصرة و أن يأخذوا في دراساتهم بعين الاعتبار الأبعاد الاجتماعية، أي تلك التي تشكل عمومًا اهتمامات علم الاجتماع و الاعتماد أكثر على تقنية المقابلة التي تجرى مباشرة مع المبحوثين المعنيين بالبحث، من جهة، و عندما رأى علماء الاجتماع أن من مصلحتهم المعرفية التركيز أكثر على الأبعاد الثقافية والرمزية للحياة الاجتماعية، أي على المعنى الذي يعطيه الفاعلون لتمثلاتهم وممارساتهم، و لما قرروا أيضا الاعتماد، لجمع بياناتهم، على الأداة المفضلة في البحوث الأنثروبولوجية و هي الملاحظة المعمقة و استخدامها بشكل متزامن مع أدوات البحث السوسيولوجي الأخرى و على رأسها المقابلة، من جهة ثانية. و إذا أردنا الاختصار أكثر، قلنا إن السوسيو–أنثروبولوجيا نشأت من الاقتناع بأن فهم الحياة الاجتماعية يتطلب الجمع بين البعدين: الاجتماعي والثقافي، باعتبارهما البعدين الأساسيين للحياة الاجتماعية، و كذا الفردي و الجماعي في سياق بروز أهمية المقاربات المتعددة التخصصات، حيث لا يجب أن يغيب على أعين الباحث، كما يقول "جيرار دوباي" (Gérard Dubey)، الطبيعة الثنائية للظواهر الاجتماعية من خلال تركيز التحليل بشكل خاص على "المناطق

الحدودية" و "نقاط التقاطع بين النظام و الفوضى" و "الظاهر و الخفي" أي في المواقع التي تتجلى فيها الثنائية المشار إليها، ليس لاكتشاف "المعنى الخفي" للظواهر كما يقال عادة، و لكن لاكتشاف "المعنى الجديد" أثناء بروزه (Dubey, G, 2013, p15). و بشكل يفقد فيه عدد المبحوثين أهميته و يتجاوز فيه الموضوعي و الذاتي و الاهتمام بهوامش المجتمع المعاصر حيث لا تتم عمليات الاندماج و إعادة إنتاج العلاقات بالشكل المتوقع و حيث يحدث انهيار للبنى القائمة و إعادة النظر فيها، أي حيث تحدث التحولات و الابتكارات و الأشكال الجديدة للحياة الاجتماعية من خلال مقاربة يختفي فيها التمايز بين العلوم الاجتماعية و تتقاطع من خلالها كل من الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع و ربما التاريخ و الفلسفة، كما كان ينادي به علماء معاصرون كبار من أمثال "بيار بورديو" (Pierre Bourdieu) و "برينو لاتور" (Bruno Latour) (Berliner, D, 2017).

قائمة المراجع

1– باللغة العربية

كريس هان و هارت كيث، الأنثروبولوجيا الاقتصادية، ترجمة عبد الله فاضل، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، الدوحة، 2014.

مرقومة منصور، "التاريخ عند مارك بلوك و المنهج السويسيو–أنثروبولوجي: دراسة مقارنة في منهج البحث العلمي "، الحوار الثقافي، المجلد الثاني، العدد 2، 2013، ص ص 106–110.

2– باللغة الأجنبية

Adel, Faouzi, (s.d.) « L'approche socio-anthropologique », consulté sur internet (file:///C:/Users/Administrateur/Downloads/socioanthropo-4-adel.pdf), le 15/03/2020

Berliner, David, (2017), « C'est quoi la différence entre sociologie et anthropologie ? », 09 mai 2017, consulté sur internet (http://blogterrain.Hypothèses.org/9453), le 15 mars 2020

Bouvier, Pierre, (2003), « L'objet de la socio-anthropologie : Crise, déstructuration, recomposition, perdurance », 15 janvier 2003, consulté sur internet (https://doi.org/10.4000/socio-anthropologie.27), le 15 mars 2020

Champagne, Patrick, (1998), La sociologie. Toulouse, éditions Milan.

Cuche, Denys, (1998), La notion de culture dans les sciences sociales. Alger, Casbah-éditions.

Dubey, Gérard, (2013), « Introduction », *Socio-Antropologie*, n°27, 1er semestre, pp.9-20

Dodier, Nicolas, (2012), Les anthropologies d'un sociologue, Genèses, 2012/4 n°89 : 10-27.

Estoile (de l') Benoît, (2012), « Anthropologie et sociologie : Croisements et bifurcations », Genèses, 2012/4 n°89, p 2-9.

Hamel, Jacques, (2003), « la socio-anthropologie, un nouveau lien entre la sociologie et l'anthropologie », 15 janvier 2003, consulté sur internet (http/socio-anthropologie,revue.org/73), le 15 mars 2020

Juan, Salvador,(2008), « La « socio-anthropologie » : champ, paradigme ou discipline ? », 04 juin 2008, consulté sur internet (http://journals.openedition.org/bms/869), le 15/03/2020

Norbert, Elias, (1991), Qu'est-ce que la sociologie ? Paris, éditions de l'Aube.

Sardan (de), Jean-Pierre Olivier, (1995), Anthropologie et Développement, Essai en socio-anthropologie du changement social. Paris, Edition Karthalla.

----, (2001), « L'enquête de terrain socio-anthropologique » : 63-81, in. Institut de recherche du Magnreb, Tunis.

----, (2010), « De la nouvelle anthropologie du développement à la socio-anthropologie des espaces publics africains », 01 janvier 2010, consulté sur internet (https://www.cairn.info/revue-tiers-monde-2007-3-page-543.htm), le 16/03/2020

Touraine, Alain, (1974), Pour la sociologie. Paris, éditions du Seuil.

Ward L. F., (200 »), « Rapport de la sociologie à l'anthropologie », 15 janvier 2003, consulté sur internet (file:///C:/Users/Administrateur/Downloads/socio-anthropologie-72.pdf), le 24 avril 2020.